جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
المرحلة الثالثة
المادة: فقه اللغة

عنوان المحاضرة

العربية الباقية (الفصحى) وموقع لغة قريش من اللغة المشتركة

أ.م.د. سعد أحمد إبراهيم

العربية الباقية (الفصحى) وموقع لغة قريش من اللغة المشتركة

اللغة العربية الباقيَّة هي مزيج من لهجات مختلفة بعضها من شمال الجزيرة وهو الأغلب وبعضها من جنوب البلاد اختلطت كلها بعضها ببعض حتى صارت لغة واحدة، وقد وصلت إلينا اللغة العربية الباقية عن طريق آثار الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والحديث وآثار العصور الإسلامية المختلفة.

يعد موضوع البحث في أصل العربية الفصحى ونشأتها من الموضوعات الشائكة في الدراسات اللغوية العربية القديمة والحديثة؛ فقديماً كان هناك اختلاف بين الباحثين _علماء العربية الأوائل _ منذ البداية حول طبيعة أصل العربية الفصحى ونشأتها، وأقدم الروايات العربية تقول بإنَّ الفصحى تحتوي على عناصر لغوية من لهجات متعددة بينما أصرَّ آخرون على أنها كانت لهجة قريش التي تتحدث بها، وأوضح أنها تتكون من مزيج من عدة لهجات وتحتوي على كلمات مصدرها قبائل وأقوام أخرى .

موقع لغة قريش من اللغة المشتركة

إذا اتخذنا القرآن الكريم نموذجاً للغة المشتركة، ولم نقصر هذه اللغة المشتركة على لغة قريش وحدها، وجدنا العرب خاصتهم وعامتهم ينظرون إلى هذا الكتاب المبين على أنه أروع بيان وأسماه.

وإذا قلنا أنَّ القرآن لم ينزل بلغة قريش وحدها ، بل نزل باللغة المشتركة التي وصفنا، كان علينا أن نقف عند بعض النصوص المأثورة، وأن نفهم ما يراد بها ، في ضوء تأويلها، وذلك بأن نؤول الحديث المشهور عن النبي ﷺ:" أنا أفصح العرب بيد أني من قريش"، إذ إنَّ في هذا الحديث تقويمًا عاليًا للغة قريش وليس حطًّا منها، كما قد يتبادر إلى الوهم، إذ هو جارٍ وفق أسلوب بلاغي معروف لدى العرب، وهو إيراد المدح بصيغة الذم للمبالغة في المدح.

وينبغي أيضًا أن نفسر ونوجه القول المشهور من غير واحد من الصحابة والتابعين، وهو أنَّ القرآن نزل بلغة قريش، كالذي روي عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من أنه نهى عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) عن أن يقرأ القرآن ويقرىء القرآن بلغة هذيل، وقول عثمان رضي الله عنه لكتبة القرآن بالقراءة الموحدة: ((إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم)).

فأما حديث النبي صلى الله عليه وسلم كما أشرنا أنفًا، تقويم عالٍ للغة قريش وثناء عليها، والاستثناء فيه يراد به المبالغة، وهو ضرب من المدح بأسلوب شبيه بالذم كما قدمنا، وهو عند البلاغيين من ضروب البديع.

وأما روي عن عمر وعثمان رضي الله عنهما فمحمول على التغليب، وهو أنَّ الغالب في أسلوب القرآن ولغته، نزوله بلغة قريش، والتغليب أسلوب بلاغي ولغوي معروف في العربية وله في القرآن صور كتغليب العاقل على ما سواه، وهو من تغليب الأفضل على ما دونه، من مثل قوله تعإلى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) إذ أولت الأسماء هنا بأنها أسماء الأجناس المتنوعة، من الأنس والجن والملائكة والطير والنبات والجماد وما إليها من المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، وإنما قال:(عرضهم) بضمير العاقل (هم) – على رأي من ذهب إلى أنَّ المراد بالأسماء في الآية أسماء الأجناس – تغليبًا للعاقل من هذه الأجناس على ما دونه.

وقد وصف الزجاج (ت311هـ) هذا المذهب في تأويل الآية بأنه مذهب أهل اللغة، وبع قال غير واحد من أهل العلم من غير اللغوين كابي عمر بن عبد القرطبي (ت463هـ) وأبي شامة المقدسي (ت665هـ) وذلك حين عرض لحديث عمر وعثمان رضي الله عنهما في هذا الموضوع ؛ مما أشرنا إليه سالفًا، فقال : ((وهذا أثبت عنه، ومعناه عندي: في الأغلب ؛ لأنَّ لغة قريش موجود في صحيح القراءات، مت تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهمز)).

وعلى هذا يكون وصف اللغة المشتركة التي وصفنا بلغة قريش، باب تغليب لغة قريش على بقية اللغة المشتركة التي هي جز منها، أو قل: هو من باب تغليب الأفضل على ما هو دونه في الفضل، وهي بقية اللغات، ولغة قريش ، أفضل اللغات لأنها جمعت من مزايا تلك اللغات الأخرى ما جمعت، وعليها بذلك قد تفوَّقت، فاختارت من تلك اللغات ما جعلها تسير نحو النمو والتطور والاكتمال يومًا بعد آخر فصارت قريش كما يقول يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ) (أفصح العرب) في قوله:" كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنوه من لغاتهم، تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ"، وبالمثل قال أبو نصر الفارابي (ت270هـ) :"كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وإبانة عمّا في النفس. والذين عنهم نُقِلَت اللغة العربية، وبهم اقْتُدِي، وعنهم أُخِذَ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُكِلَ في

الغريب، وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يُؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"، فعلماء العربية الأوائل عامَّةً يتفقون على أنَّ لهجة قريش هي أفصح اللهجات بل إنها أصل العربية الفصحى.

موقف العرب المحدثين:

تبع فريق من العرب المحدثين علماء العربية القدامى في نهجهم، فوضع لهجة قريش في المنزلة العالية، وجعل لها السيادة على غيرها من اللهجات العربية بفضل ما أتيح لأهلها من ثقافة وجاه وسلطان، وما انتقل إليها من عناصر لغوية زادتها ثراء، فهي عندهم اللغة الفصحى التي نظم بها الشعر وألقيت الخطب في المحافل والمجتمعات، وهي عندهم لغة القرآن والحديث والآثار الدينية والأدبية والعلمية، ويمثل هذا رأي كل من الدكتور طه حسين ومصطفى صادق الرافعي، ومنهم أيضاً الدكتور عبد الجبار علوان الذي ختم بحثه بقوله:" وبذلك أصبحت لهجة قريش اللغة الأدبية العالية التي نَظَّمَ فيها الشعراء الجاهلية وقصائدهم، ثم نزل معظم القرآن الكريم بها".

وبحث فريق آخر من العرب المحدثين هذا الموضوع، وخرجوا بنتائج متقاربة في الرؤية، وهي إنَّ هناك لغة مشتركة خليط من جميع القبائل العربية في الجزيرة العربية، وعرَّف الدكتور ابراهيم أنيس (رحمه الله) تلك اللغة المشتركة بقوله:" وتتخذ اللغة المشتركة في بدء نشأتها مركزاً معيناً يتاح له من النفوذ السياسي والحضاري ما لا يتاح لغيره، فتتطلع إليه المناطق الأخرى وتسلم له زمام القيادة وينزح إليه الناس فيؤثرون في لهجة أهله ويتأثرون بها، ثم تتبلور عملية الاتصال في نهاية الأمر إلى صورة من الكلام أساسها اللهجة المحلية الأصلية وقد امتزجت بعناصر أخرى واحدة من مختلف اللهجات الأخرى بحيث يتكون من هذا آله مزيج منسجم يقبله الجميع ويقبلون عليه، فينتشر في مختلف البيئات اللغوية وهو ما نسميه باللغة المشتركة، ومراكز اللغات المشتركة في العالم هي عادة عواصم الدول والمدن الكبرى التي تهيأت لها تلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية".

لقد نشأت هذه اللغة العربية المشتركة في مكة أم القرى وبلد الله الحرام لظروف دينية وسياسية واقتصادية، أما الظروف الدينية فذلك لأن بيئة مكة كانت منذ عهود سحيقة قبل الإسلام بيئة مقدسة، يفد إليها العرب من

كل فج ليحجوا إليها ويؤدي هذا بالطبع إلى اجتماع فريق كبير من العرب، في هذه البقعة المباركة، ويختلطون بأهلها، ويختلط أهلها بهم، ومن هذا الاختلاط ينشأ ما يُسمَّى باللغة المشتركة، وأما العامل الاقتصادي فكان أهل مكة يختلطون بالوافدين إليهم في تلك الأسواق التي تقام حول مكة للبيع والشراء، فيسمعون منهم كما يسمع منهم هؤلاء، وهناك نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة، بين هؤلاء القبائل جميعاً، ونمت وازدهرت بتوالي وفود القبائل إلى هذه الأسواق، وقد حملت هذه الوفود، تلك اللغة المشتركة، إلى مواطن قبائلها، فانتشرت بين انحاء الجزيرة العربية، ولكنها لم تنتشر على ما نرجح إلا بين الخاصة فقط، من أبناء القبائل المختلفة، وهم أولئك الشعراء والخطباء، ولهذا كله كانت للهجة القرشية، من أقوى اللهجات أثراً، في تكوين اللغة العربية الفصحى. وتتميز تلك العربية الفصحى المشتركة، بصفات معينة، شانها في ذلك شأن كل لغة مشتركة، وللتوضيح أكثر معنى اللغة المشتركة يقول الدكتور رمضان عبد التواب – رحمه الله–: ((إن اللغة المشتركة لا تتضمن شيئاً من خصائص اللهجات المحلية، فهي لغة منسجمة موحدة، لا يمكن أن تنتمي إلى بيئة خاصة، من بيئات الجزيرة العربية، فلا يحق لنا ان نقول مثلاً، إن اللغة المشتركة هي لغة قريش، أو تميم أو غيرها من قبائل العرب، بل هي مزيج من كل هذا)).

ويرى استاذنا الدكتور غانم قدوري الحمد أنَّه لم تكن هناك لغة أدبية مشتركة تنتظم كل انحاء الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان الناس يتكلمون بلغاتهم العربية التي نشأوا عليها، ويحققون التواصل بينهم بالقدر اللغوي المشترك بين تلك اللغات، وهو غير قليل؛ وحصل امتزاج كبير بين لغات القبائل العربية بعد الاسلام، لكن الغلبة كانت للغة قريش التي مَكَّن لها وساعدها القرآن الكريم الذي أنزل بها وكتب على نطقها، واعتمد علماء اللغة العربية على لغة قريش بالدرجة الأولى في وضع القواعد لكن الامتزاج اللغوي ترك آثاره، فاختفت بعض خصائص اللغة الحجازية (لغة قريش) لتحل محلها خصائص لغوية من لغات القبائل العربية الأخرى، مثل ظاهرة الهمز التي اقتُبِسَت من لغة بني تميم وأهل نجد وصارت هذه القواعد نموذجاً يحتذى، وبذلك تميزت ملامح العربية الفصحى.

ولقد حافظ قرَّاء القرآن على هذه الصفة ، فلم يدخلوا الصفات اللهجية التي اعتادوها، في القراءات، بل قرأوا كما رووا، وخير مثال على ذلك قارىء البصرة الكبير أبو عمرو بن العلاء ت(154هـ) الذي هو من القرَّاء المشهورين ، إذ كان يميل إلى تسهيل الهمزة في قراءته، على الرغم من أنه ينتمي إلى بيئة تميل تحقيق الهمزة.

وكذلك ابن كثير (ت120هـ) قارىء مكة، وأحد القرَّاء السبعة أيضًا، إذ كان يميل إلى تحقيق الهمزة بعكس أبي عمرو، مع أنه من بيئة حجازية تسهّل الهمزة كما قدمنا.

لكن اطلاق لغة قريش على اللغة الفصحى ليس أمرًا غريبًا منكرًا ! وذلك للإسهام الكبير الذي أسهمته هذه اللغة في تكوين اللغة الأدبية، العربية الفصحى المشتركة، وفي هذا يقول الدكتور رمضان عبد التواب :((حقًّا يمكن القول بأنَّ لهجة قريش أسهمت في تكوين العربية الفصحى بعناصر كثيرة، فلا مبالغة إذا في اطلاق عبارة(لغة قريش) على اللغة العربية الفصحى)).

ويبدو أنَّ هذا المراد بقول فندريس:((تقوم اللغات المشتركة دائمًا على أساس لغة موجودة، حيث تتخذ هذه اللغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفي التكلم)).

ملاحظة جديرة الوقوف عندها ذكرها المرحوم الدكتور كاصد ياسر الزيدي، إذ قال:"

لسنا ممن يميل إلى القول بوجود صراع لغوي بين لغة قريش ولغات بقية القبائل وانتصار لغة قريش – (وفق) قوانين الصراع اللغوي – بعد ذلك عليها ، أقول لسنا ممن يميل إلى هذه الوجهة؛ لأنَّ لهجة قريش لم تسقط بقية اللهجات أو تمحوها من الوجود، كلا لم يحدث هذا مطلقًا ، وإنما أخذت منها واستفادت من مفرداتها، فكان أكثر ما نزل من القرآن بها، وهو أمر طبيعي، لما ذكرنا آنفًا من تفوقها في المفردات وفي الجرس والدلالات".

وأما الدليل على أنَّ القرآن لم ينزل بلغة قريش وحدها فهو هذه الروايات المتضافرة في نزوله بأكثر من ذلك، فقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب وابن عباس (رضي الله عنهما) أنهما قالا:((نزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب)).

وروي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال:((نزل القرآن بلسان مضر))، إذ قال المبرد في قوله تعإلى :﴿ وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا ﴾[البقرة:61]: الفوم لغة مضر، ومضر عدة قبائل منها قريش وكنانة وأسد وهذيل وتميم وضبة وقيس، بل روي أنَّ فيه من لغات العرب – من غير هذه القبائل – ألفاظًا، فقد فقد روي عن أبي عبيد القاسم بن سلام (ت244هـ) وأبي العباس المبرد(ت285هـ) أنهما ذكرا أنَّ عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها ، ومنه قوله تعإلى :﴿ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ ﴾ [القيامة:15] المعاذير: الستُور، واحدها معذار: وهي لغة يمانية، وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١ ﴾ [النجم:61] معناه: لاهون بالغناء، وهي لغة يمانية.

فضلاً عن اللغات الأخرى التي نزل بها القرآن ومنها لغة هوازن، حيث أخرج أبو بكر بن الأنباري(ت328هـ) عن أبي صالح في قوله تعالى:أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴿٣١﴾ [الرعد :31] أي: ألم يعلموا، بلغة هوازن.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أيضًا، أنه ليس في القرآن لغة من لغات العرب ، إلا وهي فصيحة، ومن ذلك لغة (يتعاقبون) أو كما هو مشهور عنها:(لغة أكلوني البراغيث) وهي لغة الحارث بن كعب[1] فهذه اللغة وردت في نصوص من القرآن والحديث.

1() يقول بعض العرب : اكلوني البراغيث، بدلاً من (أكلتني البراغيث)، وهي لغة تلحق الوأو والنون كحروف دوال على الجمع من أسناده إلى الفاعل الظاهر.